كمن يتمرن على الموت



كمن يتمرن على الموت

عفراء بيزوك

كمن يتمرن على الموت

شِعر

الكتاب: **كمن يتمرن على الموت**

المؤلف: عفراء بيزوك

شعر

الناشر:

جدار للثقافة والنشر | مالمو، الإسكندرية

info@jidar.net | www.jidar.net

الطبعة الأولى 2024

الترقيم الدولي: **978-1-4457-7673-6**

التصميم الداخلي والغلاف: جدار للحلول المستدامة

THE HEADACHE THAT ACCOMPANIES ME.

By: **Afraa Baizok**

Poetry

Publisher: Jidar for Culture & Publishing

.Interior and Cover Design: Jidar for Sustainable Solutions

ISBN: **978-1-4457-7673-6**

[1]

كنتُ أرمي الليلَ من النافذةِ فيدخلُ من شـــقوق الباب. لم أنمْ بعـد ومـا زال الليـلُ يجلس تحـت شـــمس الظهيرةِ يمـدّ لسانه ويتمطى لنعاسي،

وأنا

أقرأ شتائمَ الأصدقاء الذين لا أردُّ على رسائلهم وأبتسم،

كيف سأقول لهم أنني متُّ

ومن تكتبون لها مجرد خيالٍ

خيالٌ

وحيد وصامت

ويرد على رسائلهم

بالدموع.

[2]

لا أفكرُ في شيءٍ هذا الصباح،

أجهّز قهوتي المعتادة وأشرد بروحي التي تفقد كل يوم حاسة منها كنتيجة حتمية لكل ما يحدث، فأنا لم أتعلم إلى الآن كيف أفصلُ بين من أخذتهم الحرب ومن بَقوا، فكلاهما نخر أيامهم سوس الفقدِ واللاجدوى.

أنهي فنجاني وأنا مستسلمةً ٌ لفكرة النهايات. النهايات هنا مثل قميصك الذي ترميه بعد أن مللتَ لونه وما زال يواجهك ذاك اللون أمام كل واجهة ملابس تمرُّ بها، مثل جوربين نخر إحداهما ثقبٌ من الطرقات فاضطررت للاستغناء عنهما كليهما بلا مبالاة،

وتَعِدُ الطرقاتَ

بمزيدٍ من الخطوِ.

النهايات؛ شجرة المشمش التي كنّا ننتظرها كل عام لنصنع المربّى، فجاء ثلجٌ قاسٍ فقسمها شطرين والمربّى انتهى علقماً.

النهاياتُ؛ الموال الذي يبقى عالقاً في فمكَ حتى تأتي أغنية ما وتأخذَ مكانه، ومع الوقت تنساه ولا تستطيع تذكره.

النهاياتُ؛ آخرِ لقمةٍ من صحن سلطةٍ أو أية أكلةٍ محببةٍ لك تحاول فيها أن تتأنى ليبقى طعمها حاضراً لأطولِ وقتٍ، لكنك سرعان ما تفكر بعدها بفنجان قهوةٍ ليغسل النكهةَ العالقةَ بفمك.

النهايات؛ الموتى الذين لن يستمعوا مجدداً لترّهاتِك عن الحياة والحُب والحرب والسلم لأن إصغائهم سيكون محدوداً بالعصافير التي ستقف على شواهدهم وحفيف ورقِ الريحانِ اليابسِ، والأصواتُ البعيدةُ المحايدةُ ستكون مثل ترتيلةِ حبٍّ لصمتِهم.

النهايات؛ صوتُك وأنت تقول لمن تحبّه [بحبَك]، وأنت تعرف أنك قلتَها بكامل يأسك لمن غاب بعيداً

فيردد الصدى أصواتاً لباعةِ الكرز والناعم، وطرَقات بائعِ الغاز على أسطواناتٍ ستنتهي وهي تنوصُ ككل النهايات.

النهاياتُ

أمنية الموتِ بالرصاص وليس ذبحاً، مع أن للموت نهاية واحدة وحتمية: انقطاع النفس الأخير منا جميعاً ونحن نتلمّسُ أعناقنا.

النهاياتُ

وأنت تضغط على زر الإطفاء في هاتفك، وأن تعودَ وحدكَ خالياً من أي صوتٍ يعكّرُ مزاج الصمت.

النهاياتُ

تشبهِ الموتَ وتشبه أيامنا المهجورةَ وأغنياتنا وقصائدنا وآخرُ رشفّةٍ من فنجان القهوة الصباحيّ وآخرُ كلمةِ تودُّ قولها لكل من غادروك.

النهاياتُ

كأولِ حبٍ وآخر حبٍ

حاسمٍ ومضنٍ

لكنه يكتب فيك

إشعارات وجودِك اللحظيّ فيه

ومن ثم يطويك

ويمضي.

[3]

هذا الوقت من الليل جيدٌ لتقرأ.

اقرأ خيباتك على الملأ. اقرأ أمنياتك واطمرها تحت تاريخك لربما يزهر غموضها متاحفاً.

اقرأ نوايا قلبِك واغسلها بمطر الحب الذي تمتلكه وحدك.

اقرأ مدونات الآخرين غير المكتوبةِ لا في أعينهم ولا في صورِهم التي تحاول أن تكونَ على ما يرام.

اقرأ أغنيات تحبها لكن لا تتورط في حب أصحابها إبقَ كاملاً.

إقرأ الروايات والشعر والقصص والدراسات ذات الجدوى، وكن حيادياّ مع كتّابها، اقرأ فقط المعنى واترك باقي التفاصيل تتحدث عن نفسها وحدها دون أن تتدخل أنت وتلقي عليها سهام حبّك او رفضِك،

وبإمكانك بعدها أن تفكرَ بالرقص على هذا الخراب من الكلمات والحكايات.

ابتسم

أحد ما سـيشـتمك وأنت ترقص على جراحِكَ، لكن لا تهتم

واصِل عبورَك

إنها فتنة النوايا

واصِلها بالقليل من الكلام

والكثير من الصمت.

[4]

كانت أغنيةً رديئةً تلك التي مضت فينا،

سنوات لا تحصى

وأنا

أنا

مع مدنٍ هائلة ٍمن النســاء في بلاد ســحقت الحرب أغلب رجالها، ما زلتُ أهروِل وعقلي آلةٌ حاســبةٌ يحســب تواريخ الأمنيات، مدخرات العواطف، فواتير الانتظار، والخطوات المتبقية للهاوية،

وما زلتُ أجادلُ العبارات التي مات اغلبها بســكتةٍ قلبيةٍ،

وصوتي يردد:

أيتها العبارة اقتليني

لا شــيء لدي في نهاية عامٍ وبداية آخر ســوى أنني ما زلت أنتظر

أنتظر خلف نوافذ دمشق

كلَّ من غابَ لينهي الغياب.

"وما عاد يجي لعنا.. حتى العصافير"

[5]

أميلُ على جثتي قليلاً واشــرد في تلك المرأةِ بي وهي تصــنع القهوة بحبٍ ثم تشربها بحبٍ أيضاً رغم كلّ المرارةِ حولها.

ترتدي فسـاتينها لرجلٍ غيرَ موجودٍ ،ثم تعلّقها على مشـجب الانتظار.

اجّلَت مواعيدَ الموتِ قذيفةً قذيفةً وصــاروخاً صــاروخاً واحزمةً ناسـفةً ورصاصاً وشـظايا ونوباتٍ قلبيةٍ وسـقطات متتالية لروحها

اجّلتها جميعاً ريثما تنتهي المعارك، لتحظى برقصـةِ ثقةٍ على ايقاعِ حبٍ عميقٍ.

كانت النساءُ هنا تطبخن قلوبهن على نارِ الحروب، أما هيَ فكانت تنشره على حبالِ الغسيل بين الرّكام

علَّ ايقاعَه يجفّ قليلاً

لتخبزَه رغيفاً كي لا يجوعَ انتظارها.

الرجال هنا فقدوا حاســة التأملِ وتورطوا بإيقاعٍ ســريعٍ للتهلكة، حتى الجثث هنا حياديةٌ بعواطفها

لم يعد يعنيها من الحب ســـوى فرصـــةِ المغادرةِ الســـريعةِ
والسخريةُ على كرسيٍ محايدٍ.
كنت أجلس بجانب جثتي الهادئةِ أرســـم دوائراً في الفراغ
حولها ليتحرك هواءٌ ما ويوقِظَ حُزنها، فربما تؤجل غيابها،
كانت القبلات تنهمر عليها كفراشاتٍ مرتبكةٍ تحطّ قليلاً على
شفتيها وتطير والجثة تبتسم،
كلوحةٍ نسي رسّامها أن يضبطَ مقاسات الصمت في فمها،
كنا نطير أنا وهي
والقبلات تطير
والعالم كله يحترق في
كومة بلاد.

[6]

في رأســي يتكدسُ قتلى من كلِّ الطوائفِ، طوائفٌ كثيرةٌ من الأطفالِ وألعابهم، يطوفون حول طفولتي المعطوبة؛

طوائف من النساء الحزينات اللواتي كنَّ يوما سعيدات،

طوائف من الرجال العشاق الذين كانوا يخيطون قلوبهم بطرقات هرولت عليها نساؤهم المغرمات،

طوائف من الكلمات العذبة الطيبة المنهكة المكسورة.

طوائف من القصائد والروايات متكئِةٌ على أكتاف أصحابها القتلى.

طوائف

طوائف من القتلى تنهش رأسي

وأنا أنهشها بالصمت والحب

والحنين.

[7]

نحن النســاء الخائبات اللواتي زرعن أعمارهن في أصــيص الحياة التي لفظتهن في أول حربٍ وآخر سلمٍ.

نحن الخائبات؛ نساء من توت اللفظ وماء ورد الكلمة.

نحن الخـائبـات اللواتي يرســـمن الكحـل فوق جفن البلاد فينهمر مطرٌ غامضٌ على رموش خيبتها.

نحن الخـائبـات اللواتي أحببن الحُبَّ فســقط العـالم عنـد أقدامهن ليشفي غلّيله بالسُكرْ.

نحن النسـاء الخائبات؛ جيش طويل من أقلام "الروج" لوّن الحزنُ شفاههنَّ بزرقة الوهم.

نحن الخائبات، لم تأخذ الأوطان رأينا عن شــكل الشـجرة التي ســنكونها. نحن الخائبات؛ ننام على ظلنا حتى لا يجرحِ الموالُ عنق الناي.

ونحن النســاء الخـائبـات؛ العـاليـات، الجميلات، الممتنـات، المحبات

في بلاد خائبةٍ

ننشدُ أغنيةً فتُزهرُ في قلوبنا

سيمفونيات بلادٍ

أقلُّ خيبةٍ

وأقل بلاء.

[8]

لا أتقِنُ التبرّجَ كالنساء،

أضــع أحمرَ شــفاهٍ بســيطاً وأفضّــلُه طبيعياً من التوتِ الشـامي أو الشـوندر. لا أضـع كحلاً، حتى لا يرى أحدٌ سـوادَ دموعي فيعتقد أني ملتاعةٌ بالفقد.

لا أتقن الغواية كالعاشقات

أكتبُ قصيدةً غبيةً عن الحبّ وأغلق الأبواب ورائي.

لا أتقن فنّ الجذبِ

أكتفي بعواطفي لتجهش بالغناء كلما مسّتها قلوبٌ عامرةٌ.

لا أتقن كيدَ النساءِ

فحياتي لا تحتمل أنوثةً مهترئةً.

لا أتقن شيئاً حقيقياً سوى الحبَّ

الحب الذي يبني قوارباً من التوابيت

ليبدأ بالإبحارِ مع كل الذين ماتوا

ولم يحظوا يوماً بالتجديف

في بحرٍ مسروقٍ.

[9]

وكنت أتمشى في داخلي،

داخلي الذي داهمه جيش من الوحدةِ، فأطلق قدميه لضجيج المعاركِ؛ المعارك التي تبدأ بإشارات النصر وتنتهي بسيلٍ من الخساراتِ..

الخسارات التي تتبضع خيبتها من داخلي، فتعقد حلفاً مع التأمل الذي يزدان به قلبي؛ قلبي الذي أحكّه بمقاعد محطمةٍ في حدائق ملغومةٍ بالتذكارات،

أن تنجو من نفسِك

العبارةُ التي تكررها نفسي لنفسها طوال المعارك التي أصبح لديها خواطرَ وشعراءَ وكتّاب. هناك من يمتدحها بقصدِ كذبةِ كسب الحياة، وهناك من يرثيها بقصدِ كذبةِ الضعفِ والخسارات وربما ضعف المواجهةِ وربما لتسلم الكذبةُ من معاركَ على نيّةِ معاركٍ خاسرةٍ.

عموماً

كلّ صباح أحاول أن أتفاهم مع داخلي بدون معارك، لكن كلّ خارجيٍّ بي يمسح وجهه بالسهامِ المصوبةِ لنجاتي،

مع أني أغني وأرقصُ

وأحّبُ وأكتبُ

وأصرخُ

وألّوح بيديّ للمحبين الخائبين،

أحدّق طويلاً بالكاذبين،

وتكون رسالتي على شكلِ زهرةٍ قلّمتُ أظافرَ أشواكها كي لا تجرح المسافة بيننا،

أيضاً

أصنع طعاماً بسيطاً ويرضي داخلي وأتمتع بالتهامهِ كأني أسمع سمفونية لبيتهوفن أو موزارت أو موالٍ هاربٍ من حنجرة نصري شمس الدين أو أتماهى مع لوحةٍ لفان كوخ أو لؤي الكيالي،

أقصد أنني أقوم بواجباتي تجاه داخلي بكل حرصٍ، لكن يبدو أن الفجوةَ التي تصطادني أكبرَ من فكرةِ النجاةِ لأنها أحرَصَ على اللامبالاة،

نعم

داخلي الذي يفقدُ بريقهُ من تقلبات المعارك الخاسرةِ فيه

أصــبح كجنديٍ معطوبٍ، لأن رصــاصَ المعاركِ لا يفرّق بين
رأسٍ
وفكرةٍ.

[10]

أودّ لو أكتبَ شيئاً عذباً لمسائي

جملةً بسيطةُ وصغيرةُ

مثلاً:

عن العواطفِ التي تتفتحُ للأرصفةِ والعابرين، عن طعمِ القهوة في غير أوقاتِ الحرب، عن الفرحِ المتأرجح في غموضِه، عن "عروسة السكر بالمي"، الحبّ المركّز من أصابعِ أمهاتنا البهيّات، عن كنوز الحب في جيوب قلوبِ أبائنا، عن أسطحةِ بيوتنا التي كنّا نحوّلها لأسطحة طائرةٍ نرى كلّ تفصيلةٍ من خرائطِ خضرتنا فيها، عن التفاح السكريّ المصبوغِ بلون عروقنا،

عن مناديل جداتنا الملوِّحة

عن زرقة الأزقةِ

عن القواسم المشتركة والمختلفة فيما بيننا،

عن الأوطان

عن معنى الحبّ الممزوجِ برائحة الحبق والتنور،

عن فساتين أيامنا التي ركلتها ريح التغيير لصنع حضارةٍ من كبريتٍ، عن فكرة الثورات التي قرأناها في منتهى وعينا وفكرتها الحالية في منتهى جنوننا،
عن مواسم التين المجفف المغسول بشمس صادقة وجفاف قلوبنا الآن بشمس أيامنا الحارقة، عن لُعبنا التي لم تتعد خمس بحصات [حجرات] نقلبها على ظهر أكفّنا ويقهقه القلب بضحكة انتصار، عن لذة الحبّ في قصيدة مسروقة كانت منتهى الرضا في مقهى براءتنا.

أكتب شيئاً عذباً، لا عن الآيبادات والجوالات التي سرقت حتى نغمة الصوت في بئر عميقة...
عن ماذا يمكن أن تكتب شيئاً عذباً الآن!
قل لي أيها العالم الفجّ،
هل تستطيع الإمساك بضحكة معطرةٍ من يديها لتردها لحضنك وقت تشاء! هل يمكنك أن تركل الكرة التي على كتفك لتصيبَ مرمى أيامكَ بنتيجة غير قابلة للمحو بطرف اصبعٍ مهزومةٍ!
لا أريد أن اكتبَ شيئاً عذباً سوى عن الحب.

يكفيني أنه لم يسقط بعد من قلبي الذي أراهنُ عليه وأنا في منتهى حزني و يأسي،

طوبى للعذوبةِ التي تتسللُ من أصابعٍ قادرة على العدِّ بعد.

[11]

لم يعُد لي شيءٌ هنا سوى ما تفرضُه عليّ ذاتُ الذاكرةِ؛ فإما نشيدٌ أبديٌ لها وإما تكسيرُ الوقتِ بين أعمدةِ الكلام،

كأن ترجِع من ذاتِك القديمةِ

أن تَسقي روحَك تنفسَها

أن تستعين بكل لاءاتِ الحياةِ لتنهض منك ايجابية ما،

أن ترقصَ على جراحِك وكأنك تحاول رَتقَ الجسـد المبعثرِ فيك!

هذه وحدها كفرٌ مستمر

لكل ما سيأتي،

ستتناولك كل الدروب وهي فاتحةٌ أفواهها لتبتلع منكِ بقايا تنهيدةٍ عالقةٍ في عينيك،

أن تفرحَ

مشروعٌ طريقه طويل

وأن تفرحَ

سماءٌ تفتح أصابِعها لمطر

يغسلَك ويغسل أوساخ كل المرحلة،

أن تفرحِ أي أن تغني نشـــيدَك بكلّ حرقـةٍ لتـذيـب ثلوجَك الأزلية

ثم ماذا؟

تلتوي أعناق كلماتك وأنت ترددُ بصمتٍ

إني هنا وإني هناك

أنا القاتل والقتيل

عيناي شوارعُ دمشقية وقلبي لؤلؤها،

ثم ماذا ســينهيك غير هذا المحترقَ بجلِّ وجودك فيك وأنت غريق المســافات والغياب وترانيم أهلك القديمة، ينظر فنجان القهوة إليك بســخريةٍ ويصــفعكَ، تتمنى لو ترتمي فيك كل انهياراتِك لتقوم منك قيامات الحياة، لكنكَ تهوى السقوط فيك دائماً وأبداً

ككلّ الشعارات والهتافات وموتِك اللاحق،

كم بليدٌ هذا الوقت فيما بيننا وكم بعيدة هي الاحتمالات، يلاحقني سربُ قصائدَ وأنا أهرول باتجاه عبورٍ عكسيٍ بي

أمتهن كل البقايا المتبقية في هذه الفوضى

أعدّ السلالم وأحصي الجنائزَ

والبلادَ

والامنيات

وكرمةٌ هربت من بين أصابعي

أن خذيني نبيذاً في فم قصــيدةٍ لا تغيب، حيث ســيبدأ الجنون وسأرمي عن كاهلي كل اليقين، للجنون لغة واحدةٌ شرسةٌ

أن تنجب بلاداً لا تجلس فوق ظهري طول الوقت

وانا أهذي

خذيني.. خذيني

لأنقذ موتي من هذه الحياة.

[12]

توتُ قلبي الذي شاخ قسراً بحجة حربٍ طارئةٍ،

أصابعي التي نسيَت تجديل ضفيرة امرأةٍ مهزومةٍ تعيش بي،

وجهي المغسول بخطايا الحروب والدموع واليتامى،

ركبتاي اللتان سقطتا على برٍّ يتقمص الظلال،

الشهيق الذي يحتله صمتٌ لا قلاع تسندهُ

ولا هواء،

ووحدي أصادق أيوب وأعينه على صبري فيه،

فلا تقل للكلمة والأغنية والأزهار

والحب والشوق والبلاد:

أني غريق

فلا شيء يفسّر للموتِ هذا القلب الذي يموء على بابه

كقطةٍ تنقضُّ على حضنٍ غريقٍ.

[13]

أعدُّ على أصابعي كلّ الوداعاتِ

بدءاً من الأهلِ الأولين وليس انتهاءً بمن يغادرون،

حتى في هذه اللحظة

أصابعي تواجه سيلاً من الوداعات،

حكمتي ترتبها، قلبي فوضى محطاتها،

من أين يأتي الحياد لكل هذه الانتظارات!

يجيب قلبي:

لا تلقي أحمالكِ علي فأنا أنتظر أيضاً وعلى قدمٍ واحدةٍ

كل هذا الغياب ليستريح.

[14]

لم يتركوا لنا شيئاً حلواً يسندنا،

لا طرقاتٍ آمنة نتسكّعُ على أرصفتها، لا رجالاً يهدوننا الورود حتى لو من قبيل التودد البريء، لا مدناً نهرب إليها كلما شعرنا بحاجةٍ للتغيير،

لا مسارحَ

لا سينما

لا أروقةً نهرول اليها آخر المساء لنحلم بالحياة التي أردناها،

لا أهلَ نمضي إليهم كلما بردَ القلب وجاع،

لا أصدقاءَ

لا أبناءَ

لا شيء على الإطلاق

سوى كبسولاتٍ مهدئةٍ

وبضعة أمتارٍ نتحرك فيها كمن يتمرن على الموت،

هذه هي الحياة التي منحنا إياها الأوغاد

عندما فكروا بنا.

[15]

الخيول التي تركض صــباحاً تحت شــرفاتِ قلبِكَ، كتكتكةٍ ناعمةٍ على الشــبابيك، صــوتُ الباعة في أســواقِ الفقراء والأيادي الممتدة المنتظرة اجتماع العائلة على طبخة برغل مثلاً،

الترنيمة الهادئة لكمنجةٍ من قصــب الوقتِ وهي تطيلُ النظرَ في عينيك،

ناي الرعاة على عشــبِ الطفولة المســكونة بفردوسِ الزمن الأول،

الحب العميق والعذب المســتمر في حدوثِه بين شــاهقات المدن ونحيبِ أطرافها،

الدمدمة الخفيفة لأمٍ في محاولةٍ للإمساكِ بغفوة صغيرٍ بين أهدابها،

الهتافات البدائية لمواويل أرواحنا للقبض على جمر الحياة وكل الحريات التي سكنتنا في غيبوبة الموت المؤقت،

العيون المولعة بالجري نحو غرام الســاحاتِ والأزقة والنضالات الحقيقية،

الأقدام المهرولة باتجاه دروبٍ مرّت يوماً عليك فتلقفها قلبك بالمزيد من العبور،
الرقص فوق شاهقات الكلمة وحدائقاً من النوتات لتعبّد أيامك بالخفّة،
وحتى رشاقة صمتِك
زنابق قلبك
السلّم الموسيقي الذي تعتليه أغنية قليلة الحيلةِ،حوارات العصافير صباحاً عن جدوى النشيد؛
الأمنيات
براهين الماء في العطش
وجموحِ الظل فتنة العناق
بائع القهوة المتجول على رصيف الحرب حيث لا أحد سواك، مساكبُ الدمع على عشبِ الشوق
مأوى اليأس في دمعتك،
ارتباك الغيتار لمزاج حزنِك،
مذاقُ القبلة في الأثر
العمر المفرط في خيباته
وماذا وماذا

ماذا تريد بعد!

إن كنتَ تريد أن تمضـي بعيداً في الحياة عليكَ بالمناورة، أو بعيداً في ذاتك

عليك بالصمت،

إن كنت تريد أن تهرول بعيداً في وجودك

عليك بالزهد،

وإن أردت الإصرار على المضي بعيداً في الحب

عليك بالحياة،

الحياة

خدود أيامنا التي ابتسمنا لها يوماً

فهرمت بعدها كل ضحكاتنا وأسئلتنا

وكل الأجوبة التي فقدت أطرافها من هول النهايات.

[16]

عندما وجدوك مفخخاً بالأغنيات لم يجرؤ أحدٌ على الاقتراب منك، فقد خافوا أن تصطادهم أغنية ما وتتساقط قلوبهم في بئر الحنين،

كنتَ مأهولاً بنفسك وتكتبُ قصائدك لامرأةٍ لا تعرف نفسها. كانوا يتساقطون الواحد تلو الآخر وهم يتابعون سلالمك الموسيقية وهي تعلو

هم يتساقطون والأغاني تعلو

وكانت تحبُك المرأة التي لا تعرف نفسها، بل لا تعرف حتى اسمها. كانت مأهولة باليأس بدرجة كافية لتشعر بالدوار، فقد خرّبها الحب إلى آخرها مثلما خرّبتها الأغنيات، تبتلع مسكنات من الصمت وكبسولات من السكينة وتعلو.

تواجه نهارها بالتلصصِ على الذكريات

وتمضي لليلها عالقة بصنارة الشِعر التي لا تصطاد بها سوى المزيد من الخراب،

كنتَ مفخخاً بالأغنيات

وكانت مفخخةً بالوداعات،

تلك كانت أغنية حبٍ صامتة

على إيقاع من يسقطون تباعاً.

[17]

كنتُ أريدُ ان أكتب لكَ عن أشياءٍ حلوةٍ،

أشياءٌ بنكهة الأمهات

برائحة فساتينهن التي تهف على الروح

ولا تســتطيع ان تتخلص منها مهما حاولت أن تداري دمعك في تنفسك. وكنت أريد أن أمضي في النهر الذي غيّرتَ مصبّه عندما صادتني غابات العطش.

كنت أبحث في خاطري عن كلمة لا تكسِــره، وكنت أريد أن أساوم البلاد على حبٍ، فانزلقت روحي في ترنحها المرّ،

ربمـا لا يكفي أن تبكي كمطرٍ ولا أن تـدق عنق حزنِـك بموســيقى لا تخرجُ إليـك فـأنـت مـأهول ببلادٍ تعصِــف بمستحيلات الشكوك،

وكنت أراهن على أثرك بنســيان يحلّق من مدينة لأخرى علّ الذاكرةَ تفقد بوصلتَها فيك،

وكنت أعوي في الصمت وأحياناً ألمُّ الصوت في كأسٍ خاسرةٍ تردد شعراً يتيماً كلما تذكّرت معنى الارتواء.

كانت البلاد تمضــي في ضــلوعِ أبنائها وكنت أنا الناجية الوحيدة من منعطفات وقارها، وكنت أهرولُ على ركبتّي

على عينيّ

على صوتي

ولم يكن هناك من أحدٍ يصطادُ النشيدَ الذي وقعَ من قلبي حين اصطادتني كل هذه الألغام.

كنت على بلادٍ من قلقٍ

وكنت أنت

بلاداً

من

ريح

[18]

الرغبةُ الحقيقية بالكتابةِ تأتي على شكلِ انهزاماتِك

كم عددها..!

عدّ معي

تفاح صباحك المنخور،

قهوتك المتلهفة لهيلِ الحياة والحب،

خبزُ يومك المتعفن على سطوحِ موائدك،

ظهيرة ناقصة تحاورُ كثيرَك المرّ،

مساؤك المتعكز على سعالِ وحدتك،

وليلٌ هائج طويل وممتد من ستائرِ روحك وحتى مواويل غربتك عنك،

عدّ معي كل شيء،

الحقيقة لا شيء يستدعي العدّ

أقم صلحاً مع الحرب

وقاوم بكسرةِ حب وهمَها.

[19]

أنا المرأة المطرودةُ إلى يأس عزلتِها

أبحثُ عن معجزةٍ مفخخة بالجمال تبعدني عن بشـــاعتي

وبشاعة العالم، لكني متورطة بالأسى

الأســى الذي يفتح لي ذراعيه كلما فكرتُ بخيانته في براري

روحي.

[20]

لم تقدّم لي الحياة الكثير قبل الحرب. كنت صـغيرة جداً عندما دخلتُ معاركَ الحياة بمحاولاتٍ لا تحصى لأقفَ على قدميّ،

فقدت أبي

فقدت أمي

وكان الفقد قاسياً،

لكن الحربَ أدخلتني معاركاً لا هدنات فيها، معاركاً مستمرة على جميع الجبهات، وأفقدتني الحرب الكثير من لياقتي الفكرية والعاطفية، لأنها كانت عبارةً عن صراعِ بقاءٍ مستمر،

صراع وجود ولو أنه كان أحادي الجانب،

إحساسك أنك ملاحق من عملك

من استقرارك في بيتك

من نظرات الآخرين المشككة بموقفك أياً كان

وأياً كان الأخر

وملاحق من قذيفة

من صاروخٍ

من رصاصٍ مار،

من كلمة تفجّر داخلك لأشلاءَ،

فعل الملاحقة هذا يجعلَك لا تميّز من الذي يهرول أولاً: أنت أم هؤلاء!

بين كل هذا الفقد

لا تنتظر شـــيئـاً حتى من الكلمـة التي تودّ قولهـا، بينمـا الآخرون يواصلـون المشي على قلبك بهرولة جماعيةٍ، لعلهم يكملون اقتســـام الكعكة التي تقف على هشـــاشـــتها وأنت تتساقطُ منك عليك،

أصبحت كعكة نتنة

تلك التي لم تتذوق منها سوى رائحتها

فتسممت شُعبك الهوائية منها

فخسرت نفسك فيها وخسرت شعوباً لا حياة فيها.

[21]

كحبٍّ

حبّ معّلق في الهواء دون عواميد

وحتى دون مضادات حسرة

ستجمع شمل نفسك وتراقب قنّاص أيامك،

طاوِعه

ضعْ رأسك وجبةً لجوعِه

لربما يتهدّم نحيبُك وعواؤه

على أرضٍ أكثر شبعاً.

[22]

قالوا: أنك عاطل عن الحب

وأنك تسافر مراراً على جناح الأغنيات ولا تصِل،

فقلت: لم لا.. إنه النفقُ الطويل للخلاص

قالوا: أنك تسكن جهات لا تستكين

قلت: خلف الذكريات جهات مصابة بالهبوب

قالوا: أنك تمضي في مكانك

كأن القلب يضرمُ في ناياته قصبَ المزدحمين

فيشهقُ النسيمُ جيشاً من الخائبين،

قلت: ها أنذا أكتب شعراً وفياً لموتي

قالوا: أنك تموت

قلت: هو كذلك مخلِصٌ لمسِيره

قالوا.. وقلت..

حتى اختصرتُ المائدةَ بكأسٍ من قلق

وعودَ ثقابٍ تعوّد على التمادي بأصابع ضاعت هيبتها

في النسيان.

[23]

رميتُ كلّ شيءٍ من النافذة،

صحن السجائرِ، أكياس الدواء التي بعثَرَت وقتي، الحذاء الذي كنت أركض به وراءَ الأمنيات، الأغنيات والأفكار الطاعنة بالعدَم، الرصاصة التي فكَّرَتْ يوماً أن تخترقني، لوحات لرسامين موغلين بالغياب، الورق المكدس بغبار الذكريات، زجاجات المناكير وأظافري،

أقلام الروج وفمي،

القصائد المختبئة في علب الرسائلِ،

الصور

المواعيد

المناشير

والخواتم

رميت كماً هائلاً من السعال وبخاخات التحسس

رميتُ عمراً كاملاً من التأني،

وعمراً مضاعفاً من الهرولةِ

رميتُ الحبّ واللا حبّ

وبعدها رميت نفسي في فخ النسيان

حيث لا أحد.

[24]

أمّا بعد

فماذا تريدُ من نفسِك في النهاية!

أن تكتبَّ للمدنِ التي تزورُك ليلاً بحجة اللهفة!

أن تمشّط حدائقَ قلبِك الواسعة وتجدلها قصيدة حبٍّ صافية، فربما داهمه شوق الغياب،

أن تشيّع الليل بقبلةٍ وتُخرِس منامات الشرّ من حولك!

أن تكون مداخل عباراتك مغسولةً بالحبّ!

أن توطِّن بساتين اللطف في ابتسامةٍ!

أن تقدّم عشب أيامِك وتزرع دروباً مشجرةً!

وأن وأن وأن

حسناً..

أليست هذه تواريخ مفككة قابلة للجمع

وتحتاج فقط لموائد من صمتٍ

وحكمةٍ!

[25]

بعدَ كلّ انفجارٍ

بعد كلّ قذيفةٍ وصاروخٍ

تجلس كالأهبلِ على درجِ عمرِك

تفكّر بغابة الهبلان التي تعيش فيها،

لا أعرف كيف يمكن استبدالَ قبلةٍ بقذيفة

استبدال حضنٍ بصاروخ

استبدال حبٍّ براجمة موت.

لا أفهم سرّ التقنية الحديثة للحياة التي يستخدمها هؤلاء الهبلان، لكن ستستمر في شرودِك..

ستفكر بفنجان شاي على وجهه تسترخي ورقة نعناعٍ تنتظرك، ستبتلع بدلاً منه مسكنات الهبل نفسِه

تغريك أصابعُ من تجِبّو تحاول الإمساكَ بها، فتجد نفسك تضغطُ على أظافرِك التي نهشت جلدَك، تفكر بالبانيو

أن تأخذَ قيلولة في حضنِه

وإلى جانبك يجلس كأسٌ من النبيذ

يشرد معك بفقاعات الصابون

التي تحاول أن تصمد أمام ملمس الجسد

فتجد نفسك تحت صنبور الماء البارد

وهو يحاول أن يصمد فوق رأسك المشتعل،

تمسك عواطفك الهشّة بأسنانك

وتبدأ بالركض

الركض الذي يكون مجرّد صوتٍ يأتيك من بعيد:

موتي على نار هادئة

كي لا تنفجرَ

برودة

العواطفِ.

[26]

كانت تحبُك

وكانت تغسلُ الهجران بالسنين،

ثم كانت تغني

فيغطُّ العالم في حزن شديد،

بعدها كانت تراقصُ الريح

والريحُ تنهبُ الطرقات بناياتٍ فقدت مصيرها،

ثم كانت تبكي

فتمطرُ البلاد قصائدَ حارقةً،

ثم كانت تموت

وعشبُ عمرها يعطشُ لوجهٍ حيّ،

ثم تصير فراشةً تُفسد خيالَ الشعراء،

ثم كانت تحبّك تكراراً يروّضُ الكمنجات على أغنياتٍ

طائشةٍ

ثم...

[27]

كفكرةٍ هدّامةٍ عن الحبّ

تحفرُ في التراب

ثم تشـيّدُ عاموداً من مراحلَ متعددة من الأناشـيدِ الهدّامة أيضاً، ثم تبني بيتاً ثم تسحقهُ بفكرةٍ أكثر هدماً!

أحياناً تفكّر أن تحيي فيكَ الحياة بومضـــةِ كلمةٍ مارقةٍ بين الحواجزِ وسيارات الاسعاف، ثم تتذكر أنكَ تموتُ في الحبّ وتُبعث وحدَك لتميتَ ظِلّهُ،

ثم تفكّر أن تعبثَ بصوتِكَ

تجعله سلّماً للسماوات

ثم تعلّق حبلاً من قصـــائد وتربطُـه حول عنقِ أغنيتها المفضلة لتأرجحها شالاتٍ وطائرات ورقية،

تفكر قليلاً وكثيراً

أن تنهبَ الطريق إليك بضحكةٍ

أو تسرق الضحكة لتمشي عليها أقدامَ أفكارها

أفكارها الهدّامةِ عن الحبّ.

[28]

وبعد أن تهدّمتِ المراكب التي ساقت ملامحكَ للعدم، وبعد أن تمترس الندى على الأشرعةِ المثقوبةِ بفعلِ الصراخ، وبعد أن لململوك من مكائدِ الحالمين وصفعاتِ السائلين، بعد أن شاخت عقاربُ أيامنا وهرِمت دموع الأسى، بعد أن علّقوا دموعك على مشانقِ المدن وبعد أن جعلوك قرباناً للهزيمة،

فكرتُ أن أفيض بلعثمة مشتاقٍ في خوابي الريح، كما فكرت أن أستدل على عطشيفي بقايا مراكبك المهدومة،

وفكرت في قلقي

قلقي الذي نبتت له أقدام،

لكن لم أفكر يوماً

أن أجعلَ من مصيري أغنيةً تتمرد على ألحانها

عناوينٌ ضالّة في مسارح العالم.

[29]

وحاربوا هجرانَك

غيابَك عن ساحاتِ المعارك

لاحقوكَ من منفى لمنفى

دوّنوا اسمكَ على حدود بلادٍ لا تعرفك،

سألوا عنك البحاروالغابات

أقسموا بكل شيءٍ حيّ

أنهم سمعوكَ تغني للنوارس في الفجر

لكنك لم تكن موجوداً،

وزّعوا أموالاً وكنوزاً لمن يجدُ أثرك

لكن أثرك ماء.

وظلك عواصف.

قاموا بجمعِ أشباهك وتعثروا بأسمائهم

فأطلقوا رصاصاً في الهواء ليبعثروهم

ولم يتبعثروا،

كان هؤلاء من فروع

أصلك وفصلك

ومواسمك

من طينك،

كنت وحدي من يعرفُ أين ركضتَ

فركضتُ على أثرك

وتركتُ الساعات تركضُ معي

والغابات

والبحار

حتى الفِطر جمع مظلته تحت إبطه وركضَ معي،

كان الأثرمثل منسف خواطر تأكله أعينُ القارئ

وتبتلعه عيناي،

كنت هناك

هناك،

حزناً مهجوراً في كومة بلادٍ

وقلبي ينهبُ البلاد بكومة حزنٍ متكورة بين أدمعي.

[30]

أخبروني أنكَ امتهنت القلق على أبواب المدن، وقالوا أيضاً أنك توزعُ الحبّ في رسائلَ شفهيةٍ، لكن إلى الآن لم يصلني شيء،
كما قالوا أنك كل يوم تفرُك دموعك بالأنهار ثم تغسلها بالألم وتجففها بمناديل حزنٍ قديمةٍ أخرجتها من دُرجِ مدينةٍ
كانت تكتب إليك رسائلها،
ثم قالوا أن تم اعتقالك بتهمة التجسسِ على فراشات كانت ترقصُ في النهرِ! ولأنك أوهنتَ عاصفةً كانت قادمةٌ من الشمال فعادت مكسورة الخاطر،
قيل أنك جلست منزوياً في زنزانتِكَ وكانت نفس الفراشات التي رقصت في النهر تأتي إليك وتنامُ على كتفيك اللتين أصابهما وهن الاعتقادِ بأنك مطارد إلى الأبد،
هنا بالذات

فكرتُ أن أكتبَ لكَ عن البحرالذي يعبث بمصـــير المرجان
لكنني خفتُ على مصـير أفكاري أن تغرق في وهن حسـراتِك
عن الألم على أبواب المدن،
مدنك.

[31]

بما أنك لا تحبُ الضجيج تعالَ لنصادقَ حماسة الصمتِ.

هل خيالك يكفي لتؤلف قصيدةً أو أغنية لا يعبثُ بها ضجيجُ المارّة! خيالي شاحبٌ الآن أحتاج لكأسٍ من الفودكا وشرائحَ ليمونة مكثفة لأستطيع أن أعيد اللون لفكرتي،

ثم ماذا تريد من الصمت!

أليس الصمتُ منفى الحزن والتأملِ الكئيب. كل يوم أمرّ بنفس الطرقات، نفس الوجوه الكظيمة، نفس التنهد لامرأةٍ تبيع المناديل الورقية على شارة المرور

أليس هذا صمتاً لئيماً!

في الوظيفة؛ألتقي ذات الكائنات التي ترتدي ابتسامةٍ ميتة لتجعل يومها مقبولاً، وفي البيت؛ عليّ أن أجلس في العتمة لساعاتٍ طويلة حتى لا يعيق صمتي الجنون الخارجيّ.

أنت

أنت

ماذا تريد من الصمت!

كيف يمكن لغيتارٍ أن يعزفَ أغنية بأقل ضـجيجٍ ممكن! أو كيف لشـجرةِ نارنجٍ أن لا تحتفي بالريح برقصــة تضـج بها الحياة!

العجوز الذي بلا ساقين والمستقرّ على كرسيٍ بقدمين، كلما مررت من أمامه ناداني بصــمت لأشــتري منه أغنية بلا قدمين،

كيف لي أن أحفظ الأغنيات التي لا أقدام لها أو كيف لي أن أمضي معها بخيالٍ لا يمشي!

هل تحب الفودكا التافهة التي لا يوجد غيرها في حاناتِ دمشق!

سميرنوف.. هل تعرفها!

وحتى النبيذ أكثر تفاهة

ربما تم تعتيقه في براميل من فلين إنهما أســوأ اختراعان لمن امتهنوا العزلة والصمت في الحرب.

ربما أنت تفكرُ بكأس من الكبسولات المهدئةِ للصداع الذي يداهمك كلما زادت حمولة الضجيجِ على يومكَ،

أعرف أنك تريد أن تنجو من الضـجيج، وأعرف أني أريد أن أنجو من هذا الصمت القاتل،

كيف يمكن أن نتبادلَ الأمكنة ولا تخترق رصـاصـةٌ طائشـة
المسافة التي نودُّ لو نقطعها إلى نصفين!
سيّان هذا الموت
سيّان كل شيء
هي القصيدة المهجورة
التي تراكم عليها غبار التعب
فاحتلتها خيوط العنكبوتوأصبحت بيتاً من أفكارِ واهيةٍ
تلك كانت أغنية صامتة
أيضاً.

[32]

أما بعد..

هل يمكنك تخيّل أردأ من هذا الزمن!

عدّ معي..

يلاحقون الكلمة التي تريد أن تقولها فتضطر لأن تبتلع كبسولة مهدئٍ قبل أن تقولها حتى لا تصدمك ردة فعلهم.

حتى الاغنية التي تفكر أن تستمع لها تشرد قليلاً قبل أن تسمعها، لتحدد توجهها قبل أن ينهمر عليك تجار المواقف والوجهات والواجهات،

حتى فنجان قهوتك لن يسلمَ من انتقاداتهم

هل تشربه وأنت داخل الحرب أو خارجها ليحددوا مدى الراحة النفسية التي أنت فيها.

ثيابك.. نعم..

هل تبدو عليها غبرة السنين والحرب! أم أنك تواكب موضة الحياة دون حرب.

الحب

وكأنه ترفُ حياةٍ

فلا تســتطيع تحديد مســتوى علاقتك بمن تحبّ، فأنت معجونٌ بحربٍ هائلة لا وقت فيها للحبّ حتى لا تُتَهم بالسطحية

الخ الخ الخ..

وبعد..

هم لم يروا أكوام الأدوية التي تتعاطاها حتى تستطيع أن تستمر بأقل الخسائر الممكنة، لم يواجهوا الرصاصة الموجهة لرأسِك في فوضى الشوارع التي مرت عليها أقدامك، لم ينتبهوا لليلكَ المسكون بكوابيس يمرّ عليها كل الأموات فتستيقظ مرعوباً ومكسوراً وتتمنى لو تموت لتنتهي معك كل هذه الكوابيس.

لم يتعرفوا على قهوتِك المغشوشة بالحمّص المحروقِ والذي يحرق معه حلقك ومجرى تنفسك، لكنك ما زلتَ مؤمناً بفنجان قهوة صباحيّ قادر على ايقاظ كل المتهالك فيك.

لم يشاهدوا غبرة الوقت كيف تمضي على يومك وأنت تُقنعَ ثيابك أن تبقى محافظةٍ على بريقها مهما حدث.

هل يمكنك تخيّل مستوى الغباء الذي نحن فيه!

سأقوله لك في رسائلَ كثيرة قادمة

فقط انت حاول أن تتنفس حباً

ولو قليلاً من الحياة

مهما كان مستنقع اللاحب يتوسع فيما بيننا

جميعاً.

[33]

أغسلُ دموعي جيداً عندما أستيقظُ
أجففها وأضعها على مشجب الانتظار،
كما أغسل قلبي بأرصفته وشوارعه وحتى أشجاره المغبرة
وأحياناً
أضطّر أن أغسلَ دموعه هو أيضاً.
أغســل روحي المتوحدة في صــمتها كظلٍّ مطابق لكل شــيء يعبرُ، أغسل قدميّ اللتين تطآن الوقت بهدوءٍ وأعلّقهما على كتفيّ، أغسل أصابعي المذنبة في ارتكاب قصائدها الكئيبةِ وأرميها على ركبتيّ؛ ركبتيّ أغســلهما بترابِ المراحل جميعها التي مررنا بها وأتركهما لتتشمسان في ظهيرة بائسةٍ
صوتي المستمر في بحّةِ إيقاعه
أغسله بفودكا مخففة بالليمون،
الليمون الذي يتناوب على يومي
شرائحاً مغسولة بالخيبات،
هي طريقة حياة بالنهاية،
ثم أتجهز لأشرب قهوتي

التي أغســـلها بهمهمات أغنية بعيدةٍ لجأَت مع كل اللذين
مَضوا غير عابئين بنكهتها ليتخلصوا من بشاعة السفلة،
أنا الآن أعيش تفاهة الحياة
من مصير الصباح الغامض
وحتى مصيدة الليل المُوَلع بتكثيف خيباتنا
وعلى الملأ.

[34]

و بعد..

قطّعتَ حبتي فريز في كأس ماء وانتظرت

كانت لديّ رغبة بأن أتعرّفَ على لونٍ آخرٍ لعطشي،

وها أنذا أحاول كتابة رسالتي اليومية لي

بينما ينضج اللون،

الصداع الذي يرافقني يجعلني لا أفكر سوى بمقبض الباب الذي علّقت عليه كل شــيء بمجرد دخولي البيت، لكن ثمة حاجات بسيطة عليك القيام بها وانت تتعافى من صداعِك ومن مقبض أفكارك

مثلاً..

أطفئ كل الإضاءة حولك،

اغمض عينيك

وإمسك رأسك بكلتا يديك

وتخيل شكلك

وأنت بلا أوجاعٍ

ستبتسم حتماً

وهذا جيّد

ثم انتظر قليلاً وفكّر

ماذا تريد ان تقول لنفسك اليوم،

بالنسبة لي ما أريد قوله:

أنني أفقد عواطفي

لا بد أني سُرِقتْ.

بين كأس الماء بالفريز

والمقبض مسافة هائلة من العواطف والصمت.

[35]

أما بعد..

ولأني أراني أعبرُ في متاهات اللغةِ التي تنتشل أجزائي فأتوارى عني كي لا أسقطَ في البشاعةِ التي تنهمرُ من أطرافِ هذا الزمن الهشِّ، ولأن فان كوخ قطع أذنه ليقدمها لحبيبته لن أتردد يوماً عن قطع صمّام أمانِ القلب الذي ينتقم مني كلما مشيت باتجاه أسماءَ الحبِّ الكثيرة، فأراني كيف أمسح الصدأ عن اللغة قبل قلبي

لأتمكن من أن أنجو بي،

فيه أنا بين مدينتين كافرتين وهشّتين

وناكرتين للوقت.

[36]

لو أنّكَ لي
لكانت يداي مضتا في الأرضِ حرقاً
ولأصبحَ طعم الخبز شراراً
ليستفيق العجين حصاداً لي،
لو أنّكَ لي
كنتُ سأنهمرُ موجاً في الموت لأحييه،
أصادق رابيةتتقن العزف على المصابيح،
كنت سقيت الطواحين من غنائيودققت البحر بعكازي
ومشيتُ ليزهر اللوّن على متن أغنية،
لو أنك لي
أتمسك بياقات أصابعك وألوّن أظافري بتوت قلبك وأتبعثر في مساحات حدائقك كانفلات نجم في سماك، وأصنع طوقاً يلائم ثورة شِعري معك، لأجدف وأجدف نحو العتبات التي هي سكينة فوضاي فيك

يا الله لو أنك لي

لصــارَ نشــيدي قُبلٌ أتبعها وتتبعني إليك كحُلم الملائكة في

الثبات على أرضٍ، فأدنو بهدوء فراشــة أختبئ في ســترتك،

أغتسل في قلبك كريحانة لأشفى من اللوَثان،

هكذا أبتكرُ حضوركَ في غيابك

وأغني طوال الوقتفي النهر:

نادني نادني

لو أنكَ لي

ألا تريد ان تكون

لي!

[37]

أنت أجمل من أن تنامَ هذا الصباح،
كمدينة تستيقظ على وقعِ مطرها
فتنهضُ له لتغتسلَ بهطوله في انتظارِ أحتضانِك،
أنت أجمل من أن تصمتَ
أن تتكلم
أن تغني
أن تنام
أن تناقش
أن تحتضر
انت أجملَهم
كذئبٍ يحلم بفريسة ليصادقها من شدّة الوحدة.

[38]

أشعر أني على شَفا قيامةٍ مستعجلةٍ

وأقدامي تمسُّ أكتافَ كل المراحلِ

وتتهيأ للركض في غيبوبة هذي البلاد،

أخرجوا قلوبكم من غواية الشيطان

وأحبوا البلاد

أحبوا

البلاد.

[39]

كان سفري إليكَ طويلاً

على غيم يبسط البلادَ تحتي كسحابةِ بحرٍتشدو بك

وترفعني لله قليلاً.

[40]

فيما مضى

كنتُ ألحق الأحصنة نحو النهر وأبتسم،

بعد ذلك

لحقتُ العربات الماضية في الروايات وكنت أبكي،

والآن

ألحق القطارات من رصيف إلى رصيف وتصيبني الدهشة

لكن

متى ستلحقني الطرقات التي مضت فيها قدماكَ

دون أن تغتالني احتمالات الطقس

وتمحو أثري؟

[40]

ربّما كان حباً عن طريق الخطأ!

مثل رصاصةٍ طائشةٍ جرحت الهواء الذي شَهَقْتُه فخرج مع زفيره القتلى الذين أحبهم،

كنت يائسة فعلاً

حتى أني بحثت عن عنوان يناسب هذا اليأس كي لا يخطئُه الشِعر فحشوت قلبي بهذا الحبّ ولقّمتُه بالجنون ومشيتُ على الكلمات التي تناوبتُ معها على حراسة هشاشتي، وفي كل مرّةٍ كنت أكتب فيها اسمكَ كان يهزمني النطقُ، فقد كنت أبحث عن أسطورةٍ حيّةٍ

عن معجزةِ حياةٍ بين كل هذه المجازرِ لأحارب بها القبحَ الذي حوّل حياتي لمجزرةٍ نفسية مستمرةٍ، لكن لا أعرف لمَ فجأةً كلّ شيء يتجاهلك!

حتى الأغنية التي كانت تسند معكَ يومكَ، تمضي إلى آخرينَ وتتركَكَ معلقاً في سلّمها الموسيقي، فتخونُك ركبتاك وتسقط ملتاعاً بيأسِك

ومع ذلك

قدتُ قطيعاً كاملاً من القصائد

وراءَ أغنياتٍ تخندقت في قلبي

ولم أكتفِ

بل أنتظرُ الآن انتهاء العرض لأصفّق بحزني

لرعاةِ الحياة الذين انتظروا نيزكاً يُربِك أيامهم الموحشة

وأعرف أنه لن يأتِي.

[41]

أنا جمهوركَ من الاشتياق والأغنيات التي تسهرُ على بابِك ،

أنا شعوبك من الخيال

عاصفة تقرض الأشعار،

وأنا كلّ جيوشَك الباسلة من العواطف

كي لا تسقطَ مهزوماً بك.

[42]

كيف يستطيع رجلٌ أن يعيش داخلَ محارّةٍ ولا تحتج البِحار!

فـأعود لأقلّـب خرائط العـالم بين يـديّ بحثـاً عن زورقٍ؛

الزوارق تبحث عن مرفأ

المرفأ يبحث غرقى

الغرقى طافوا بحار العالم

وعـادوا

العالم يبحث عن فانتازيا شيّقةٍ للثورات

الثورات صوت مأهولٌ بالمدنِ الميتةِ

الموت نازحٌ من فكرة إلى فكرةٍ

وأنا هنا في الشوارعِ الخلفية لعمرِك

أبيع حباً في كبسولات رسائل

لم تلحظها

فابتلعها العالم

وطار.

[43]

أحبّكَ

في المظاهرات التي تطالب بإسقاط التاريخ

وأحبكَ

في الحروب التي تطال طائراتٍ اسرائيلية

حتى لو من غير قصد،

أحبك في اِلسلم

سِلم الحبِ

وسِلم العينين المحدقتين في أفق القُبلة

أحبك

في الخراب المكتوي بالغياب

وأحبك في طمأنينة الحواس التي ترتدي قلبها وتمضي

لتنفجر في ورد قلبك.

[44]

إدمان المعنى يتجدد في القصيدةِ
كأن تبحث عن حبيبك في المطارات المزدحمةِ أو أن تستميلَ
ما يفيض من دموعِ عينيك لتشربه كجواب لعطشِك،
كأن تحلمَ بظلّ برتقالة تنتظرُ على كتف النافذة أصابع
دهشتك المرّة، كلمة من الساتان تتسابق للحنجرة لتلبس
ياسمين الغواية
وهذا الاتساع في السطور كوعكةِ ذاكرةٍ
على غير أوقات الصلاة
لكنه
ما زال يمتهن المواعيد القديمة في المحطات المنتظرة.

[45]

لا أتذكر أين أحببتكِ بالضبط،

ربما على باب صالة السينما

أو على مسرحٍ كانوا يغربلون عليه حوارات مكررةٍ

أو ربما في طريقٍ مهجورة كانت تغني لوحدتها

أو في صندوق رسائلَ كانت ترسل إشعارات لأصدقاءٍ

فركلني إشعار من مقدمة رأسي وأطاح بي على عتبة صمتك،

ربما أحببتك في ماضٍ بعيدٍ

وربما أحببتك غداً

أو بالأكثر

بعد بعد

غد.

[46]

هل قلتُ لكَ يوماً أني أحبك

دون أن تدمع عيناي!

آه..

صحيح

كيف لك أن تعرفَ ذلك وأنت من شـــدّة الصــمتِ امتلأت عيناكَ بضجيج الندوب مع أنك مطرودٌ من كل الجروح وأن روحكَ وحدها من تطير بلا جناحين وربما لذلك كان عليّ أن أحبّك

أنت الذي تحيا في مدنِ نفسـك وتتجول فيها كسـائحٍ يبحث عن نشيدٍ لا يطعن الحنجرةَ بسهام الحنين،

انتقيتُ هذا الحبى في شـــارعٍ مكتظٍ بالقلق واتقنتُ العزفَ على خرابه كما هذه الحرب لكن يحدث أن يكون للخسارات اسـمٌ واضحٌ؛ موصـولة بقشـة الغريق ذاتها وهي تفرك قلبَ اليأسِ

لينتزع منها شهقة الغرق

نعم..

يحدث الكثير من الأشياء وأنا أقول

أحبّك

ووجهك يلتفت لجهة مأهولة بالنسيان.

[47]

مع كل خطوة في هذه اللغة

حيث قطعتُ مراحل الكلمة التي عبأتها لي الحكايا. قررت أن لا أعتنق هذيان الورد في صباحي.

أخذتُ وعداً مني أن أُقفل ليلي كل يومٍ بصمت، وأبدأه نكايةً صمت آخر. كل شيء ابتدأ عندما:

عندما لمحتُ بسمة ثغري في ذاك المقهى منذ عشرين عاماً لم أكن أعرف أن أبتسم قبلاً ولا أن أغني لك ولا أركض إليك ولا أجرؤ على التوقف عندك.

عندما غادرني المكان منذ أحد عشر عاماً لم يشرح لي الغياب ما وجعه. عندما مات صديقي بحادثٍ تافه وهو يرتب لحبيبته الورد والخاتم والقبلات.

عندما صدقّتُ أن الأصدقاء ورفاق الطريق بعد خروجهم من زنزاناتهم لن يترددوا في وضع قطعة خبز تحت وسادتهم كي لا يروا السجان في وجه الله، ولم يكن لله علاقة بخلقه الأشرار،

هكذا أخبروني وقتها.

عندما أتى ذاك اليوم الذي تحرَرَتْ فيه أصابعي من مبضع الآخرين وأفواههم الثرثارة.

ثرثرتْ الأفكار في رأسي وهزمها صوتي

عندما امتهنتُ البكاء كأمي التي ورثته عن أمها التي هي جدتي تلك التي تكره المناديل التي تغلقُ على يومها فرحها.

عندما قلتُ لأبي كن مرآتي فأكون ظِلك.

عندما جاء الرجال الثمانية وأخذوا رجلاً وحيدا من عائلته وكنتُ أنا وقتها على هيئة سطحٍ طائرٍ ورموني بعيونهم ومسدساتهم فسقطتِ البيوت من تحتي.

عندما

عندما صعدتُ جبلاً مع أصدقاء العمر الماضي وكان غولٌ يلاحقنا وتبرع أحدهم بمواجهته ليكون طعامه، ضحكنا كثيراً حين اكتشفنا أن الغول هو من كان خائفاً ويريد أن يحتمي بنا من حراس المقابر.

وعندما

وعندما

ورطني أحد الأقرباء بكل الحكايا والقصص عن الثورات والشعارات والأيديولوجيات والسجون والمواطنة والحرية

و... و.. و.. والانتماءات ورجال الأمن مع أنه لم يطاردني أحد من هؤلاء إلا في المنام.

عندما مات من وطني بكل هذا مات وهو هارب من نفسه ومن عيني.

عندما

عندما كان جدي وهو أول المرسَلين لي، وقت أدهشني بالملائكة الذين كانوا يمرون أمامي عبر شريط كالكذبة، واكتشفت أنه كان مجرد شريط سينمائي مهرَّب وساذج لكنه أجمل من كل الملائكة الذين عرفتهم فيما بعد.

عندما خرجت من البحر والبحر واسع وعميق، وأنا ضيقة جداً لم أفهم كيف يكون متَّسِعاً في ذاكرتي فبدأتُ أتعلمُ الغرق وما زلت.

عندما أكتب وأهذي وأكتب وأبكي وأكتب وأضحك وأكتب كل هذا الذي لا يعني أحداً.

عندما

وعندها سوف أتعلمُ أن أخرسَ لأن الكلام شتيمةُ المتلقي الذي لا يقرأ. أريد سكينة نهائية وصمت ينتهي عنده الكلام.

لم تكن تريد من الحب ســوى الحب؛ الحب الذي لا يرتهن لتفاصيل الزمن المر،

كأن تقول أحبك

وهي تتألم من أوجاع الدورة الشــهرية، خجلة من اوجاعها أمام ابتسامتك الماكرة الخجل

أن تقول أحبك

وأنت تتســوق البندورة والخس والارضــي شــوكي وبطارية الســاعة التي لا تكترث لتوقفها بل فقط لتراقب فيها نومها واستيقاظها.

أن تحبك وأنت مطعون بالألم وكلك أمل ان ينقذك هذا الحب من طعنات الحياة

أن تحبك

وكل مصــائب الحياة تقع على كاهلها، ولم تمنعها من ان تحبك كمصيبة نضرة.

أن تقول أحبك

وهي تركل رأسها على أوتوستراد المزة ليصل الى سريرك غير منتهي الصلاحية

الحب

عطر ممزوج بكل آه متألمة ومنتشية ومكتوية بنيران الغياب

الحب المعلق على حبال الصوت

ما زالت تنهشه نساء العالم في عواطفك

فتقاوم بجرعة صمت.. صداها.

الحب..

ناي مائل على نغمة شريدة

لكنه صامد الايقاع بين طيات قلبك الذي يواصل

مواويله

أغنية حب.. صامتة.

عفراء بيزوك

شاعرة من سوريا

ولدت في مصياف 1973 ودرست الصحافة في الجامعة المفتوحة. عملت محررة الصفحة الثقافية في جريدة الرأي الخاصة حتى اغلاقها عام 2013.

عملت مسؤولة المكتب الصحفي في مديرية المسارح والموسيقا- وزارة الثقافة السورية. 2007-2011.

نشرت العديد من المقالات في المسرح والسينما في الصحف.



هل أعجبك هذا الكتاب! إذا كنت تريد اقتناء نسخة ورقية من هنا

لمشاركة الكتاب مجانا، فضلا لا ترسله كنسخة شاركه من هذا الرابط